

## مقدمة

يتناول هذه الدراسة بالدراسة لفن السيرة الذاتية ، كتابة النص الأدبي ، وما يثيره من أسئلة ، ولما كان هذا الفن ينفر من التجنيس فيستعير من الرؤية بعض تقنياتها ( التصوير والتجسيد للأحداث، واستبطان الذات ) ، ويستعير من الدراما ( الحوار والصراع الدرامي ) .. ويتفق مع القصة التاريخية في عرضه لحياة صاحبها الواقعية .. وهذا الفن يأتي في صور متعددة ، ويهدف صاحبها من وراء كتابة سيرته إثبات الذات وتمجيد تاريخ نضاله في الحياة ، أو تنفيساً عن ثورة عارمة انتابته ، أو حالة نفسية طارئة أو مبدأ من المبادئ وقضية من القضايا التي تنبع من ظرف و حياة صاحب السيرة الخاصة به .. بناء على ما تقدم جاء تصوري لهذه الدراسة كالآتي :

تمهيد : أقف فيه على تعريف السيرة الذاتية ، وعلاقتها بالأجناس الأدبية الأخرى والمقومات التي يجب توافرها في كاتبها ، وأصول هذا الفن في تراثنا العربي ، وتطور (السيرة الذاتية ) حتى بداية العصر الحديث ، والسيرة الذاتية في الأدب الغربي .

المبحث الأول :

أشكال التعبير الفني للسيرة الذاتية ، أقف فيه على أشكال التعبير الفني لهذا الفن، الشكل المقالى ( الذى يقوم على التحليل والتفسير ) الشكل التأريخي الراصد ( الذى يرصد حياة صاحبه في لغة علمية صارمة ) ، الشكل الرؤئى الذى يعتمد على التقنيات الرؤئية في التصوير وتجسيد المواقف ، واستبطان الذات باستخدام المنولوج الداخلى .

### المبحث الثاني :

السيرة الذاتية الغاية والمقصد ، أقف فيه على الغاية العامة لكتابة السيرة ، ثم أتناول لتنوع غائية السيرة من كاتب لآخر ، هذه الغاية التي تنبع من طبيعة وظروف صاحبها الخاصة ، واعترف بعضهم بالهدف من سيرته وعدم اعتراف بعضهم خاصة في السير الذاتية الرئائية ، وأتتبع مقصدية بعض الكتاب في هذه السير ( طه حسين - ميخائيل نعيمة - فدوي طوقان - خليل حسن خليل - حنا مينا - بنت الشاطئ ) .

### المبحث الثالث :

المؤلف ( السارد ) بين الصدق والتعري ، أقف على الجانب الإيجابي للصدق وأفرق بين الصدق والتعرية في كثير من السير الذاتية في العصر الحديث .

### المبحث الرابع :

بناء الأحداث في السيرة الذاتية ، أقف فيه على الواقع والتمثيل ومساحة الخيال في السيرة الرئائية ، والعلاقة بين سرد الكاتب لحياته ، وللوقائع المحيطة به .

### المبحث الخامس :

السيرة الذاتية الرئائية بين تقديم حياة صاحبها والولاء للفن الرئائي ، وفيه أقف على بعض السير الذاتية الرئائية التي وازنت بين تقديم حياة أصحابها في ثوب روائي ولبعضها الأخرى التي تحولت فيها السيرة إلى رؤية .

أتبع في دراستي منهجاً فنياً جمالياً ، يتعامل مع النص قيمة فنية جمالية وألتزم الموضوعية ، رافضاً التحامل أو المجاملة لكاتب أو لآخر ، محاولاً الكشف عن قيم هذا

الفن ، من خلال عدد كبير من السير الذاتية في أدبنا العربي المعاصر ، وقد توصلت إلى بعض نتائج سجلتها في نهاية البحث

لا أدعى أنني سأقول الكلمة الأخيرة في موضوع هذا البحث ، فهذا محال ، ولكن ما أستطيع أن أقوله هو أنني حاولت واجتهدت ، وأية دراسة لها إيجابياتها وسلبياتها ولكن يكفي للسلبيات أنها توجه الآخرين في دراستهم للبحث للوصول إلى الأفضل .

## والله الموفق .

د. شعبان عبد الحكيم محمد

## تعريف السيرة الذاتية :-

التعريف الجامع المانع للسيرة الذاتية ضرب من المحال ، ومرجع ذلك طبيعة هذا النوع الأدبي الذى يعرض فيه المؤلف ( صاحب السيرة ) لحياته الواقعية ، فى أسلوب أدبى ، وفى صور متعددة ، قد يتخذ الشكل الرئائى ، أو الشكل المقالى ، أو الاعترافات أو المذكرات ، أو الذكريات ... الخ

كل ذلك فى نسق متآلف ، فيعرض لمراحل حياته المتعاقبة وتطوره الفكرى والوجدانى والروحي والعقبات التى واجهته ... الخ

وللسيرة الذاتية غاية يهدف صاحبها من وراء كتابتها قد تكون توكيداً للذات أو تنفيساً عن انفعالات أو حالة نفسية ألمت به ، أو تبريراً لموقف غير مستساغ صدر منه أو دفاعاً عن قضية فكرية أو اجتماعية آمن بها ... الخ نضيف لما سبق لاستحالة وضع تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية طبيعة الأدب الذى يند عن التحديد الصارم والقول الفاصل ، لذا فلا غرابة ان تختلف التعريفات لدى الدارسين ، وإن انفقوا فى إقرارهم للسمات العامة لهذا الجنس الأدبى .

ففى دائرة المعارف البريطانية السيرة الذاتية " هى المؤلف ( الرئائى ) الذى يسجل بصورة واعية وبصيغة فنية الحدث ، ويعيد للحياة -الدرامية ، لان موضوعها الحياة، وفرع من الأدب يحتوى على تقرير عن حياة أشخاص ، وهى صيغة أدبية قديمة"<sup>(1)</sup>

ويعرفها فليب لوجون *Philippe lejeune* بقوله " سرد استعارى نثرى يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص ، وذلك عندما يركز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ

1- Purnells : New English Encyclopaedia " Biohraphy " .

شخصه " (١) ، ويعرفها فايبر؛ بأنها ( السيرة الذاتية ) " عمل أدبي ويأن هذا العمل قد يكون رؤية ، أو قصيدة ، أو مقالة فلسفية ، يعرض فيه المؤلف أفكاره ، ويصور إحساساته بشكل ضمنى أو صريح " (٢) .

ويعرفها محمد عبد الغنى حسن بقوله " التراجم هي ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذى يتناول للتعريف بحياة رجل ... تعريف يطول أو يقصر ، ويتعمق أو يبدو على السطح تبعاً لحالة العصر الذى كتبت فيه الترجمة ، وتبعاً لثقافة المترجم - أى صاحب الترجمة - ومدى قدرته على رسم صورة كلية واضحة ... ودقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التى تجمعت لديه " (٣) . وعند الدكتور محمد يوسف نجم " هذا النوع يقوم على وحدة الحياة لا وحدة الحادثة أو وحدة العمل القصصى ، أو وحدة التأثير " (٤) . وعند أنيس المقدسي " هونوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخى ، والإيقاع القصصى ، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ، ورسم صورة دقيقة لشخصه " (٥) .

ولا يعد العمل الأدبى سيرة بالمعنى الحقيقى إلا إذا كان تفسيراً للحياة الشخصية فى جوهرها التاريخى . فهى ليست مجرد أخبار تاريخية ، ولا هى مجرد تحليلات نفسية أو اجتماعية ، بل هى كل ذلك مسبوگاً فى قالب فنى ذى طلاوة وبراء (٦) .

ولعل أقرب التعريفات لهذا الجنس الأدبى تعريف د . يحيى إبراهيم عبد الدايم فى قوله : " الترجمة الذاتية الفنية هى التى يصوغها صاحبها فى صورة متربطة على

---

١ - راجع : مقدمة كتاب " السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ " ترجمة عمر حى وهو ترجمة لفصلين من كتاب لوجون La pacte autobiographique المركز الثقافى العربى ببيروت عام ١٩٩٤ نقلاً عن د . يمنى العيد السيرة الذاتية الروائية والوظيفة مزدوجة ( دراسة فى ثلاثية حنا مينا ) مجلة فصول العدد ٤ عام ١٩٩٧ ص ١٣ .  
٢ - م . نفسه نفس الصفحة نقلاً عن المعجم الكونى للادب ص ١٨٧٦ .  
٣ - التراجم والسير : محمد عبد الغنى حسن ط دار المعارف عام ١٩٦٩ ص ٩ .  
٤ - فن القصة د . محمد يوسف نجم دار بيروت للطباعة والنشر عام ١٩٥٥ ص ٣٠ .  
٥ - راجع الفنون الأدبية وأعلامها أنيس المقدسي ط دار الكاتب العربى عام ١٩٦٤ ص ٤٥٧ : ٥٥١ .  
٦ - راجع م . نفسه نفس الصفحة .

أساس من الوحدة والاتساق في البناء والريح... وفي أسلوب أدبي، قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كافياً عن تاريخه الشخصي على نحو موجز، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم وعضوية العبارات وحلاوة النص الأدبي" (١).

كل هذه التعريفات تتلاقى وتتجاور ولا تتعارض، أو تتناقض، لتجتمع على أن السيرة الذاتية الأدبية، عمل أدبي يقوم بتأليفه صاحبه، يعرض لسيرة حياته في إطار عصره، دون أن يلزم نفسه بمنهج المؤرخ الذي يقوم برصد كل أحداث عصره، وهذا العمل يتوافر فيه روعة التعبير الأدبي، وجودة الصياغة الفنية، والتناسق بين أطرافه، في رابطة فنية محكمة، مع اختلاف صور التشكيل الفني من كاتب لآخر، وانطلاقاً من هذه المقدمات الفنية لفن السيرة الذاتية نستبعد كثيراً من صور التعبير الذاتية كالأحاديث الصحفية رغم قدرتها في الإشارة إلى سمات صاحبها (الفكرية المزجبة والاجتماعية) ولكن لا تعطينا صورة مستوفاة عن سيرة حياته في نسق متكامل، أو الاعترافات الخاصة التي هي غير الاعترافات العامة مثل اعترافات القديس أوجستين، أو اعترافات رسو التي تعتبر سيرة ذاتية كاملة لأنها تعكس لنا حياة صاحبها في صورة متكاملة، أما الاعترافات الخاصة، مثل اعترافات شفيق جبري في كتابيه (أنا والشعر وأنا والنثر).

فمثل هذه الاعترافات تعتبر قاصرة في سردها حياة صاحبها، ومن هذه الأعمال التي لا تعد سيرة ذاتية - أيضاً - النصائح مثل نصائح (إلي ولدي) لأحمد أمين، ومنها -

١ - الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث د. يحيى إبراهيم عبد الدايم ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ص ١٠٠

أيضاً - الرسائل ، واليوميات وأدب الرحلات لأن كل هذه الأشكال الفنية - كما ذكرنا - لا تعرض لصاحبها فى رؤية متكاملة لسيرة حياته (١) .

وقد استخدم الدارسون السيرة بمعنى الترجمة ، وإن كانت كلمة " سيرة فى التراث العربى أقدم فى الاستعمال من كلمة ترجمة ، من حيث مدلولها فى تتبع تاريخ حياة شخص من الأشخاص ، فالأولى استعملها محمد بن اسحق فى تاريخ حياة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وبقي هذا المدلول حتى القرن الرابع الهجرى ، حتى كتب ابن الداية ( سيرة بن طولون ) فتطور المدلول من الخاص إلى العام . . . والمعاجم العربية القديمة تغفل استعمال كلمة ( ترجمة ) للدلالة على تاريخ الحياة ، ولكن المعاجم المعاصرة تستخدمها بهذا المعنى ، ولعل الاستعمال وحده هو الذى فرق بين الكلمتين فى المدلول حيث استعملت سيرة التواريخ الحياة المسهية ، وترجمة للتواريخ الموجزة " (٢) .

والسيرة الذاتية *Autobiography* بهذا المفهوم تختلف عن السيرة الغيرية *Biography* ، فالأولى تعرض لحياة صاحبها فتعكس مشاعره وعواطفه ومواقفه من الحياة فى صورة تستبطن أعوار النفس وخلجاتها ، أما الثانية فتعرض لحياة غيرها من خلال الوقائع والذكريات واليوميات والمقالات والرسائل . . . إلخ ، لذا كانت السيرة الذاتية أوغل فى الصدق ، وأوقع فى النفوس ، لأن مؤلفها صاحبها . فلا يوجد هناك وسيط لعرض أحداث حياته وآرائه ومواقفه فى الحياة ، وكلتا السيرتين لا تنتميان إلى عالم الأدب إلا إذا تحلنا بالأسلوب الأدبى . الذى يعتمد على صدق الأداء ورصانة العبارة ، وروعة الألفاظ وجمال التصوير ، وقوة الصراع الذى يمنح السيرة الحركة والجمال .

١ - راجع : السيرة تاريخ وفن د . ماهر حسن فهمى مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٠ ص ٢٥٠ : ٢٦٩ .  
٢ - م . نفسه ص ٣ .

## السيرة الذاتية والفنون :-

وإذا كانت السيرة تعتمد على وقائع حياة صاحبها ، ومجالها الذاكرة ، والرؤية تعتمد على التخيل ، ( أى أدواتها الخيال ) فى نسج أحداثها ، لذا احتاط بعض الدارسين فى تجنيسها ... لأنها تجمع بين التاريخ والأدب ، فرأت فرجينيا وولف أنها ( السيرة ) "ليست فناً - ولا علماً - إنما هى نوع من الصنعة الراقية ، وهى خادم للحقيقة والصرحة والنزاهة ، وهى الآلهة الثلاثة التى ترى السيرة وتقف عندها " (١) . ولكن كثيراً من الدارسين يرونها ( السيرة ) فناً ، وأنها " نوع من الأدب يجمع بين التحرى التاريخى ، والإيقاع القصصى . يراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته " (٢) . وأن من سمات هذا النوع من الفن أنه يقوم على وحدة الحياة لا وحدة الحادثة ، أو وحدة العمل القصصى ، أو وحدة التأثير (٣) .

ورأى ليتون ستراتشي أن فن السيرة هو " أدق وأرق فنون الكتابة طرّاً ... وأن مصدر هذه الدقة كون كاتب السيرة يسعى إلى أن يبعث الحياة فيما تبقى من مادة جامدة تختلف وراء عبور إنسان ما لهذه الحياة الدنيا ... فيسعى إلى أن يسترد ما كان بمثابة الروح والجسد والمشاعر ويصوغها على صورة ذلك الإنسان الغابر ، ومصدر هذه الدقة أن عملية السيرة هى بطبيعتها عملية تتسم بالإنسانية والتهديب والمدنية ، ولما كانت هذه العملية تجمع بين الدقة والرقّة ، فإنها تشمل على كل ما فى الحياة من غموض ومتناقضات " (٤) ذلك لأن فن السيرة يعتمد على حقائق الحياة ومعطيات الفن لذا ينبغى

١ - فن السيرة الأدبية : ليون اينل ، ترجمة صدقى خطاب مطبعة الحلبي عام ١٩٧٣ ص ١٥ .

٢ - الفنون الأدبية وعلامها : أنيس المقدسي ص ٥٤٧ .

٣ - راجع : فن النصة د . محمد يوسف نجم ص ٣٠ .

٤ - راجع : فن السيرة الأدبية ليون اينل ص ٢٠:١٨ .

على كاتب السيرة " أن يأخذ من المنبعين كليهما ( الحقيقة والفن ) بقدر متعادل ، فلتكن الحقيقة الصادقة ممزوجة بهذه الفنية الرأئية التي تصور لنا الأشخاص بما يختلج في نفوسهم من خير وشر ، حتى نلمس صورة واضحة للكائن الحي " (١) .

فالسيرة - بهذا التصور - جنس أدبي له تقنياته الفنية الخاصة به ، لأنه يعتمد على الحقائق ، التي تصاغ في أسلوب أدبي ، يستعمل فيه الخيال بقسط محدود ، وبما لا يتعارض مع عرض هذه الحقائق في حياة صاحبها ، ومن شأن هذا العمل أن يحدث متعه جمالية ، انطلاقاً من هذا التصور ينبغي أن نستبعد من هذا الفن تلك الصورة الفنية التي تأخذ طابعاً مختلفاً عن السيرة كالتى يكتبها أصحابها على شكل مذكرات يعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخية ، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتى وليست ( السيرة الذاتية ) - أيضاً - ما يكتب على صورة ذكريات يعنى فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع ، والمشاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته ، وليست هى - أيضاً - المكتوبة على شكل يوميات تجئ فيها الأحداث على نحو متقطع ورتيب ، وليست هى - أيضاً - بالرؤية الفنية التى تعتمد فى أحداثها وموقفها على الحياة الخاصة لكاتبها ، فكل هذه الأشكال فيها ملامح الترجمة الذاتية ، وليست هى لأنها تفتقر إلى كثير من الأسس التى تعتمد عليها السيرة الذاتية ( فى صورتها الفنية ) (٢) . ولا يعد من السير الذاتية - أيضاً - الروايات التى يتخذ مؤفوها شخصية من الشخصيات قناعاً لها ، لتكون هذه الشخصية معبرة عن ذاته وأرائه فى الحياة " فقد يحاول الكاتب أن يقص سيرته الذاتية ، ولكن فى نفس الوقت يرفض الاعتراف أمام الجمهور ، لأن العقل يجد الاعتراف مخجلاً ، وهنا يرى

١ - طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية د . رشيدة مهران ط الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الاسكندرية عام ١٩٧٩ ص ٢٠ .

٢ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى ابراهيم عبد الدايم ص ٣ .

الكاتب نفسه حائرة ، وفى موقف متناقض ، ولا حل لهذا التناقض ، إلا أن يجد رموزاً تكفل له السلامة ، فيلجأ إلي القصة ويتخيل لها بطلاً يمثلته وأسماء مستعارة تمثل الشخصيات التى التقى بها فى الواقع " (١) .

ومن أبرز هذه الشخصيات شخصية أديب لطف حسين ، فقد اختفى الكاتب وراء أديب ، هذا الرجل الشاذ ، ليكتب جزءاً من سيرته ، بعد كتابة الأيام ، والقارئ لرؤية أديب يشعر من الوهلة الأولى أنه أمام شخصية امتداد لطف حسين فى الأيام . سواء فى الجو الذى تدور فيه فضائيات النص ، أو فى أسلوب الكاتب الذى يعد امتداداً فى أسلوب الكاتب الذى يعد امتداداً لأسلوبه فى الأيام ، لتنتهى حياة هذا الأديب الشاذ بالجنون دون أن يضع لنا مبرراً لذلك ، وقد علل د . ماهر حسن فهمى مقصدية المؤلف حين قال "تكشف لنا رؤية أديب عن رغبة المؤلف فى الخروج من إطار الذاتية المباشرة ، خاصة بعد أن اعترف به المجتمع أديباً كبيراً وعميداً للأدب العربى " (٢) .

ومن هذه الشخصيات - أيضاً - شخصية كمال عبد الجواد فى ثلاثية نجيب محفوظ ، هذه الشخصية الفنية عكست لنا أزمة صاحبها ( نجيب محفوظ ) فكرياً ، بل أزمة جيل " كان يحس بخيبة الأمل بعد أن فشلت الثورة فى تحقيق أهدافها الوطنية العامة ... وما من شك فى أن كمال هو بطل هذا الجيل فى حياة الأسرة " (٣) .

وقد اعترف نجيب محفوظ نفسه بهذه الصلة بين شخصيته وشخصية كمال فقال " أنا كمال عبد الجواد كما فى الثلاثية ، كما يعكس أزمته الفكرية ، وكانت أزمة جيلى فيما أعتقد " (٤) . فنجيب محفوظ درس الفلسفة فى كلية الآداب وكذلك كمال ، وقد

١ - السيرة تاريخ وفن د . ماهر حسن فهمى ص ٢٨٦ .

٢ - م. نفسه ص ٢٨٩ .

٣ - م. نفسه ص ٢٩١ .

٤ - المنتمى د . غالى شكرى - القاهرة ١٩٦٤ ص ٧ .

أحب نجيب محفوظ من حى أرسنقراطى بضاحية العباسية بينما كان يسكن فى حى شعبى ، وكانت تكبره بعامين ، وقد فشل فى حبه ، فترك فكرة الزواج حتى تزوج بعد أن جاوز الأربعين ، وكذلك كمال أحب ( عائدة ) ذات المستوى الاجتماعى الأرقى لمستواه وفشل فى حبه ، فترك فكرة الزواج حتى بعد الأربعين " (١) .

ومن هذه الشخصيات - أيضاً - شخصية محسن فى ( عودة الروح ) وفى ( عصفور من الشرق ) هو توفيق الحكيم ، يؤكد ذلك أن ( محسن ) بطل عصفور من الشرق ، والتي تصور فيها رحلته إلى باريس ، وصديقه أندريه شخصية حقيقية يتراسل معه ويجمع رسائله فى ( زهرة العمر ) ومحسن فى عودة الروح ابن مستشار ويملك ضيعة فى الريف ووالدته سيده متعجرفة تحقر الفلاحين وتود أن تطبع ( محسن ) بهذا الطبع ، ولكن ( محسن ) يتعاطف معهم ، وتوفيق الحكيم ولد فى الإسكندرية عام ١٨٩٨ وكان أبوه قاضياً من قرية الدلنجات ، وأمه تركية حادة الطبع كانت تملك مزرعة كبيرة... ومحسن فى الرواية يرسله أبوه ليقوم فى القاهرة ، مع عمه وعمته ، ويلتحق بإحدى المدارس الثانوية ، فسكن معهم فى شارع سلامة فى حى السيدة زينب ، ومحسن فى الرواية فتى خيالى محب للموسيقى أحبها طفلاً منذ التقى بالأسطى شخلى ، وعزف على الهارمونيكما التى كان يملكها عمه ، وعلمته سنية البيانو (٢) ، وتوفيق الحكيم فى الواقع رجل خيالى محب للموسيقى ، ومحسن فى الرواية يحب سنية ، وفى الوقت نفسه يقع فى حب سنية عمه عبده وعمه سليم ، وقد اعترف توفيق الحكيم بهذا الحب ولكن رغم ذلك كله ينبغي ألا يؤخذ " العمل الفنى وثيقة من الوثائق التى تستعمل فى كتابة السيرة ، وإذا أخذ شئ من

١ - م. نفسه ص ٤٢ .

٢ - راجع عودة الروح توفيق الحكيم القاهرة مكتبة الآداب د ٠ ت ص ١٤٣ : ١٤٤ .

ذلك فلا بد أن يؤخذ بحذر بالغ" (١). فلم يقصد توفيق الحكيم أن يكتب سيرة ذاتية، بقدر ما أراد من روايته (عودة الروح) الإشادة بتاريخ شعبه، ومقدرته في تجاوز محنه لأنه يحمل في أعماقه عناصر المجد والخلود.

ومن هذه الشخصيات - أيضاً -، شخصية همام في قصة (سارة) للعقاد، فقد اعترف العقاد نفسه بأنه همام وبأن سارة شخصية حقيقية ما زالت على قيد الحياة (٢) وكما اعترف لصديقه الأستاذ طاهر الطناحي أنه كان أثناء حبه لهذه الفتاة يحب الأنثى مى، فقيده الأدب العربي، وقد اعترف لنا في حديث معه بحب هاتين الفتاتين وحدهما فقال: لقد أحببت في حياتي مرتين سارة ومى، كانت الأولى مثال الأنوثة الدافقة ناعمة ورقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوئتها...، والثانية كانت مثقفة قوية الحجة (٣).

ونلمح في شخصية همام أنها تتصف بكثير من صفات العقاد في النزعة العقلية الشديدة، وفي التحليل النفسى، فهمام في الرواية يقوم بتحليل نفسى، لهذه الشخصية (سارة)، وهذا منهج العقاد في كتاباته (وخاصة السير فحلل شخصية الصديق وعمر وجعل الأخير صورة للجندى... الخ) وجاء تحليله لسارة رمزاً للأنوثة الدافقة في قوله "حزمة من أعصاب تسمى امرأة وهيئات أن تسمى شيئاً غير امرأة استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة ولعلها أنتى أونصف أنتى، لأنها أكثر من امرأة واحدة في فضائل الجنس." (٤).

١ - فن السيرة: د. إحسان عباس طدار الثقافة بيروت عام ١٩٥٥ ص ٨٧.

٢ - راجع ادباء في صور صحفية محمد نصر القاهرة ١٩٦٥ ص ١٦٨.

٣ - راجع أنا لعباس محمود العقاد - المقدمة للأستاذ طاهر الطناحي ص ٢٠ كتاب الهلال يوليو ١٩٦٤ العدد ١٦٠.

٤ - سارة - عباس محمود العقاد القاهرة دار المعارف رقم ١٠٨ ط ٢ عام ١٩٦٤ ص ٩٧.

والمازنى فى إبراهيم الكاتب يخلع كثيراً من صفاته ومن أحداث حياته على بطله ( إبراهيم ) فإبراهيم قصير ضامر الجسم واهي التركيب ، ماتت زوجته ، وكذلك المازنى وإبراهيم يأخذ الأمور من مأخذها السهلة القريبة ، وإذا قرأ أو كتب يغيب عن الدنيا وما فيها ، يكره الضجيج ، وينفر من الأصوات العالية ، وهو يتطير من كل شئ ، ويفر من الألوان القاتمة ، وكذلك المازنى ، وقد حاول المازنى فى مقدمة رأيته أن يتنصل من علاقته ببطله ، ولكن الرؤية عكست خلاف ذلك . (١)

ولكن رغم ذلك كله لا يمكن اعتبار مثل هذه الروايات سير ذاتية لعوامل عدة أبرزها أن أصحابها لم يصرحوا بوضوح أنهم يكتبون سير حياتهم ، والأمر الثانى أن شخصيات روايتهم لا تصور حياة المؤلفين فى نظام متناسق يعكس لنا رحلة حياتهم ونوازعهم وأهواءهم ، ولكنهم يصورون بعض صفات صاحب الرواية وفى هذا يقول د . إحسان عباس " وليس من ريب فى أن سارة أو عودة الروح أو عصفور من الشرق أو إبراهيم الكاتب تتضمن نواة من حياة أصحابها ، وبعض الأحداث التى وقعت لهم ، ومعالم من شخصياتهم وذواتهم ، لأن هؤلاء الكتاب ذاتيون فى هذه الكتب . . . فمحسن فى عودة الروح يمثل كثيراً من توفيق الحكيم ، ولكنه ليس توفيق الحكيم . . وإذا كنت تقطع جازماً بأن محسن هو الحكيم فى القصة فما صلة الحكيم بشخصية مصطفى ؟ إنه يتحدث عن مشاعره وحركاته كما لو كان يتحدث عن نفسه . " (٢)

وقد أجاب أحمد إبراهيم الفقيه علي من سألته عن تطابق شخصيته وشخصية خليل الإمام بطل ثلاثيته ( لا أحد فى المدينة ) بقوله " كل قصة كتبتها فيها شئ من

١ - راجع : السيرة تاريخ وفن د . ماهر فهمى حسن ص ٣٠٠ .  
٢ - فن السيرة د . إحسان عباس ص ٨٨ .

نفسى ، دون أن تكون فصلاً من حياتى " (١) رغم التطابق الكبير بين الشخصيتين فكلاهما سافر إلي إنجلترا ، وحصل على درجة الدكتوراه فى الأدب من جامعة أدنبرة وكلاهما عاش فى بيئة صحراوية قاسية حالت دون تحقق قدر كبير من الحرية التى يتمناها المرء والترجمة الذاتية وإن اشتركت مع الترجمة الغيرية فى تصميمها الفنى حيث وحدة البناء ، وتطور الشخصية وقوة الصراع ، إضافة إلى اعتمادها على الاحداث التاريخية ( حياة صاحبها ) والسرد الأدبى .. إلا أن الترجمة الذاتية أكثر صلة ، وأبعد أثراً فى نفس المتلقى عن السيرة الغيرية ، ذلك لأن السيرة الذاتية كاتبها صاحبها يمتاح من ذاكرته ويكتب عما اعتملى فى نفسه ، أما كاتب السيرة الغيرية فهو يعتمد على المذكرات والوثائق واليوميات والقراءات الأخرى عن شخصيته ، فكاتب السيرة الذاتية يصور مادة متنوعة من ذاته ، وكاتب السيرة الغيرية يستنتج من تحليله للوقائع والأحداث التى وقف عليها عن الشخصية التى يكتب عنها ، و" الكاتب الذاتى هو صاحب الكلمة الأخيرة فى موضوعه فلا يستطيع أحد أن يضيف لمادته شيئاً جديداً ، وأما الكاتب الغيرى ، فهو كاتب بين الكثيرين ، ومن الممكن أن يضيف إلى موضوعاته - دائماً - شيئاً جديداً ، ومن الممكن أن يتناول موضوعه كتاب آخرون ربما يملك بعضهم أكثر مما يملك من معلومات ووثائق ، ومن الممكن أن يخرج بعضهم السيرة بشكل آخرومن منطلق جديد " (٢) .

فكاتب السيرة الغيرية مشاهد لا حكم ، أما كاتب السيرة الذاتية فهو مشاهد وحكم فى الوقت نفسه ، وتشترك السيرتان فى أن كلاً منهما تمدنا بسيرة حياة الرجل العبقري

١- راجع : الاغتراب والحلم فى أدب أحمد إبراهيم الفقيه د . شعبان عبد الحكيم محمد طدار التيسير بالمينيا عام ٢٠٠١ ص ٣٢ نقلاً عن مجلة العربى العدد ٤٨٣ فبراير ١٩٩٩ ص ٧ .  
٢ - طه حسين بين السيرة والترجمة الذاتية د . رشيدة مهران ص ٣٢ .

لأنهما يتناولان التاريخ الحقيقي للأفئدة من بنى الإنسان ، وكلتاها تطلعنا على التطور الخلقى والعقلى والعاطفى لصاحبها (١)

أما الفرق بين السيرة الذاتية والرواية والمسرحية فإن كاتب السيرة الذاتية يعتمد على الذاكرة واستبطان الذات والبوح النفسى مصوراً أنفعالاته ومشاعره الدفينة إزاء هذه المواقف التى تصور سيرة حياته ، أما كاتب الرواية أو المسرحية فهو يعتمد على التخيل فالأول يلتزم الحقيقة والثانى يترك المجال للتصور والخلق ، لذا صار كاتب السيرة الذاتية يعانى من صعوبات الفنان المبدع الخلاق على نحو أشد صعوبة ، وفى صورة أكثر تعقيداً منها ، فإنه يلزم جانب الحقيقة التزمناً صارماً ، وإنه يعانى حين يكتب ترجمته الذاتية فى صورة روائية صعوبة أشد مما يعانى الروائى أو المسرحى (٢) . وكاتب السيرة الذاتية ملزم بالمواءمة بين الالتزام بالحقيقة وبالتقنيات الفنية للسرد الأدبى ليجعل من عمله عملاً أدبياً أكثر وقعاً وتأثيراً فى النفوس .

وهناك فرق آخر بين كاتب السيرة الذاتية والكاتب الروائى ، فالأول يلزم الترتيب الزمنى فى سرد تاريخ حياته مصوراً مراحل حياته المتعاقبة ( بناءً هرمياً ) أما الكاتب الروائى فليس ملزماً بهذا البناء فى عمله الأدبى ، فقد يستخدم هذا البناء ( الهرمى ) أو يبدأ الأحداث من نهايتها ( الفلاش باك ) أو يتبع طريقة البناء المترزماً للأحداث فقد يبدأ أحداث روايته بالماضى فالحاضر فالمستقبل ، ثم يعود إلى الماضى ، ثم يسبق الأحداث إلى المستقبل ، ثم يقف على اللحظة الآنية .. وهذا يعمل على تداخلات الأزمنة وتقاطعها وفى استخدام البناء المترزماً للأحداث يبدو الكاتب وكأنه ينسج فى التو/الآن ، وتستشف من رؤية الأحداث أن الراوى لا يعرف ما سيحدث ، وأنه يتلقى الحدث بعين ، وبيئته

١ - راجع الترجمة الذاتية د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ٢٢٧ .

٢ - م. نفسه ص ٢٧ .

للقارئ بالعين الأخرى<sup>(١)</sup> ، ويختلفان - أيضاً - كما ذكرت في أن كاتب السيرة الذاتية ملزم بسرد حقائق حياة صاحبها ، على خلاف الرواية كفعل تخيلي من البداية ، وإن اشتركاً ( كاتب السيرة الذاتية والرئائي ) في إحداث اللذة الجمالية لدى المتلقى ، من خلال حسن صياغة عملهما الأدبي ، ورصدهما لدخائل النفوس وأشجانها ، مما يثير المشاركة والتعاطف من المتلقى ، لأنه يرى نفسه في فكر ومشاعر الآخرين ، وقد فطن إلي ذلك هوجو في قوله : عندما أحدثك عن نفسي ، أحدثك عن نفسك ، وغير رشيد من ظن أنني لست أنت (٢) .

وإذا كانت السيرة الذاتية تشترك مع الرواية في إحداث المتعة الجمالية ، فهي تشترك مع المسرحية في تحريك الحس المأساوي والأثر التراجيدي والرغبة في التطهير وتختلف السيرة الذاتية عن الرواية والمسرحية في عدم اعتماد صاحبها على الشخصيات الخيالية أو الأسطورية مثل الرئائي أو المسرحي ، ولا يصور شخصية أخرى ككاتب السيرة الغيرية ، إنما هو يصور نفسه بنفسه ، ومن ثم كانت السيرة الذاتية أكثر احتفالا بالنقل الأمين لحياة الشخصية .

وعلى الرغم من أن كاتب القصة التاريخية يكتب عن شخصية واقعية ، إلا أنه أكثر حرية في استخدام الخيال ، وابتداع شخصيات وأحداث أخرى ، ويخلط كل ذلك بشئ من التاريخ ، فهذا الذي يفرق بين القصة التاريخية والسيرة الذاتية ، فجوهر القصة التاريخية متخيل والأحداث الهامة فيها حقيقة ، وليس هدفها أن ترسم حياة شخص ما كما تفعل السيرة بل هدفها أن تستعيد صورة الماضي لإثارة بعض المتعة التي لا يحققها

١- راجع : القصة القصيرة - النظرية والتثنية إنريكي اندرسون إمبرت ترجمة على إبراهيم مراجعة د . صلاح فضل ط المجلس الأعلى للثقافة القاهرة عام ١٩٩٩ ص ١٤٢ : ١٤٣ .

٢- راجع : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص ٢٨ .

التاريخ في نفوس أناس ربما لم تسمح لهم ظروفهم وميولهم أوهما معاً بالدراسة التاريخية الجادة ، أما السيرة ( الذاتية ) - فكما ذكرنا - فهي تزوج متعادل بين حقائق التاريخ والقوة المتخيلة البارعة في الحذف والإثبات والبناء (١) .

أما عن كاتب السيرة فهو شخص ذو حساسية خاصة وذوق مرهف ، وإحساس باللحظة التاريخية التي يعيشها ، لأنه لم يكتب هذا العمل من فراغ ، بل من معاناة وإطالة فكر ، وفترة معيشة لموضوعه فترة طويلة حتى أخرجه إلي الوجود ، بعد معاناة وقلق و " كل سيرة فإنما هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد ، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس صاحبها نوعاً من القلق الفني ، فإنه لا بد أن يكتبها ، والناس مهما يطل عليهم الأبد وتختلف أحوالهم هم أحد رجلين : رجل وصل إلي حيث يؤمل وتتصر على الحياة وصعابها ، . . ورجل كافح حتى جرحته الأشواق وأدركه الإخفاق ، وكلا العاملين ( أعنى الوصول والخيبة ) يبلغان بالتجربة حد النضج " (٢) .

فكل سيرة جاءت نتاجاً لدافع نفسي لصاحبها كإحساسه بالمعاناة النفسية التي تحيط به نتيجة ظروف وتجارب خاصة . . لذا يكتب ليفيد ويستفيد ، يفيد القارئ بتجاربه ويستفيد بالتنفيس عن نفسه ، ومشاركة غيره؛ فيما عاناه من أشجان وآلام حتى قهر الظروف العاتية التي وقفت حائلاً في طريقه ، ويظهر نفسه مما ترسب في أعماقه من أدران وتصدعات نفسية قاسية ، إن عملية الكتابة ( عن النفس ) ليست عملية يسيرة كما يتصورها بعضهم ، فصاحب السيرة - وقبل كل شيء - لا بد أن يكون شخصية ذات أثر في الحياة ، وليست شخصية خاملة الذكر ، أو شخصية لم تترك بصمة في أى مجال من

١ - راجع : السيرة تاريخ وفن . د . ماهر حسن فهمي ص ٩٢ : ٩٣

٢ - فن السيرة : د . إحسان عباس ص ١٠٢ .

مجالات الحياة ، وإذا لم تلق ( سيرة حياتي ) لتوفيق فضل الله ضعون الذبوع والإقبال من القراء لهذا السبب (١) .

وبعد ذلك لابد أن يكون ممتلكاً لموهبة فنية تمكنه من صنع عمل فنى ، يزوج فيه بين حقائق حياته ، وتقنيات السرد ، بإمتاع القارئ ، بالصدق فى التعبير ، حتى يكون لعمله الأثر فى النفوس ، إن عملية الكتابة عملية غريبة للأحداث ، ووعى بطرق سردها فى صورة متناسقة ، تقوم على جمع الحقائق ، ثم تأتى المرحلة الثانية ، تشكيل هذه الحقائق وفى هذا يقول د . إحسان عباس " لابد لكاتب السيرة الذاتية من يقظة ذهنية مستمرة مشفوعة بإرهاف خاص من التميز والحدس والترجيح ، ذلك لأن مهمة كاتب السيرة كمهمة أى فنان بعد أن تصبح المادة جاهزة لديه . مهمته أن يقرب ويبعد ويستبقى ويرفض ، وأن يضع ميزان الاختبار أمامه فى كل شىء يستحق التسجيل ، وليس يكفيه أن يكون ماله للمؤرخ من قوة نافذة .. بل لابد له من إدراك ذوقى دقيق يعرف به ما يحسن أن يبقيه أو ينفيه " (٢) . فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصى فى طريقة العرض والبناء ، إلا أنه لا يخلق الشخصيات من خياله ولا يعتمد الشخصية الأسطورية ككاتب المسرحية .. وهو كالمؤرخ فى قوة النقد ، وكالعالم فى القدرة على التصنيف والتقسيم " (٣) إن هذه العملية التى يقوم بها كاتب السيرة أكثر مشقة على صاحبها من عمل الرئائى الذى يبدع رؤية فنية ، لأنه يتطلب فى عمله مراعاة كل المقومات الفنية لعمله ، لذا فلا غرابة أن ترى فرجينيا وولف Virginia Woolf " أن كاتب السيرة يستطيع

١ - راجع : م. السابق ص ١٠٥ .

٢ - م. نفسه ص ٨٤ .

٣ - م. نفسه ص ٨٥ .

أن يعمل على إثارة الخيال أكثر من أى شاعر أو روائى ، وذلك بإخبارنا بالحقائق الصحيحة وبغربة الصغير من الكبير . .

إن كل كاتب سيرة تقريباً يستطيع إذا احترم الحقيقة أن يعطينا الحقيقة الخلاقة الخصبة التى توحى وتثمر " (١) .

ومن الأمور التى يجب أن يراعيها كاتب السيرة الذاتية - إضافة إلى الصدق - عدم الاعتداد بالنفس وتمجيد شخصه لأن هذا يفقد سيرته الحياد والموضوعية ، وتجعلها همأً ثقيلاً على القارئ ، فلا يتجاوب معها ، ولا يندمج مع صاحبها مشاركاً ، فى بوحه النفس ، وفى أناته ومعاناته ، وأفراحه وأتراحه ، وبذلك تفقد السيرة المتعة الجمالية التى هى غاية العمل الأدبى ويجب " أن تتحرر السيرة تماماً من الوعظ أو تعمد تهذيب الأخلاق وما هو دخيل على غرض سرد قصة أو رسم شخصية ، فإنه يفسد فن كتابة السيرة " (٢) ويجب عليه - أيضاً - " أن يترك الحقائق وحدها تتكلم عن نفسها ، وعلى أن يكون نقده مذكوراً ضمن هذه الحقائق ، وليس مؤكداً لها " (٣) .

## السيرة الذاتية فى الأدب العربى :-

مرربنا أن العرب استخدموا كلمة " سيرة " وكلمة " ترجمة " بمعنى واحد وإن كانت سيرة هى الأسبق فى الاستخدام ، وقد عرف العرب فن السيرة ، وأول ما عرفوه عن السيرة النبوية ، فقد تناولت سيرته ( صلى الله عليه وسلم ) التاريخ لأفعاله وأقواله ومغازيه وقد ظلت السيرة عصوراً يقتصر استعمالها على بيان حال الرسول ( صلى الله عليه وسلم )

١ - فن السيرة الأدبية ليون أينل ترجمة صدقى خطاب ص ٧٥ .

2 - See :The readers Guide sir Willam Enrys Willams p.88 published by penguin Books1960

3 - See :OP. Cit.p 89

ثم تطور الاستعمال في عصور تالية ، فاستعملت بمعنى حياة الشخص بصفة عامة بدليل ما يذكره صاحب كشف الظنون من ظهور سير كثيرة منذ القرن الرابع الهجرى ، كسيرة احمد بن طولون لابن الداية ( ت ٣٣٤ هـ ) وسيرة صلاح الدين لابن شداد ( ت ٦٢٢ هـ ) أما كلمة ترجمة فقد دخلت العربية عن اللغة الآرامية ، ولم تستخدم في القرن السابع الهجرى ، وعلى مر العصور نرى كلمة ترجمة يجرى الاصطلاح على استعمالها لتدل على تاريخ الحياة الموجز للفرد ، وكلمة سيرة يصطلح على استعمالها لتدل على التاريخ المسهب للحياة .<sup>(١)</sup>

ولم يستخدم المترجمون العرب هذا المصطلح بدلالاته المعاصرة ( كفن أدبى ) له سماته الفنية الخاصة ولكن رغم ذلك فقد جاء في تراثنا كثير من السير الذاتية ، يتوافر فيها كثير من السمات الفنية للسير الذاتية في عصرنا ، ويمكن تصنيف حوافز هذه السير الذاتية كالآتى :-

- ١- التبريرية : وهى التى يدافع فيها أصحابها ، أو يعتذرين فيها عن أفعال قاموا بها ، لم يفهمها العامة من الشعب ، كما فعل ابن خلدون فى التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً .
- ٢- الرغبة فى اتخاذ موقف ذاتى من الحياة : وأصدق الأمثلة لهذا النوع من السير التى صورت مذهباً خاصاً أو سلوكاً بعينه لصاحبه ، مثل النصائح الدينية للحارث المحاسبى ، والمنقذ من الضلال للغزالي ، وسيرة ابن الهيثم التى احتفظ بها ابن أبى أصبغة فى كتاب ( عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء ) .

١ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣١ .

٣- التخفف من ثورة أو انفعال : وأوضح مثل لذلك ماورد عن سيرة أبي حيان التي سجلها في الامتاع والمؤنسة - وفي رسالة الصداقة والصديق فقد أفصح عن ثورة نفسية علي بيئته ومجتمعه .

٤- تصوير الحياة المثالية : وهي السير التي كتبت عن حياة صاحبها ، كى يحتذيها الناس لما تمثله من خبرات روحية وخلقية وفكرية مثلما فعل عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه ( لفته الكبد فى نصيحة الولد ) وعبد الوهاب الشعرانى فى ( لطائف المنن ) .

٥- تصوير الحياة الفكرية ، وهذا النوع الذى يعمد فيه الكاتب إلي تسجيل كل ما أثر فى تكوينه العقلى وتطوره الفكرى ( من كتب وأساتذة ) كما فعل البيرونى وابن الهيثم والرازى والسخاوى ، وابن طولون ( فى الفلك المشحون فى أحوال ابن طولون ) .

٦- الرغبة فى استرجاع الذكريات : ومن أمثلتها فى الأدب الغربى ( مذكرات ميرابو ومذكرات كارنوفنا ) وفى الأدب العربى القديم كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ الذى قدم فيه تصويراً حياً لشخصية الفارس الجسور ، وكتاب ( طوق الحمامة فى الألفة والألاف ) لابن حزم ، الذى يعرض فيه لذكريات شبابه (١) .

وإن كان كثير من هذه السير تفتقد وحدة البناء والإحساس بالتطور الزمنى ، ولا تتبع مراحل النمو والتغيير فى الشخصية المترجم لها ، وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام ، ودون محتوى وافٍ كامل حتى العصر الحديث . . ومرجع ذلك افتقاد كثير من هذه السير عنصر الصراع ، الذى يعطى العمل الأدبى الحركة والنماء ، لأنها مفتقرة إلى العمق

١ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣٣:٣٥ ، وراجع فن السيرة د . إحسان عباس ص ١٢٣:١٤٠ .

النفسي<sup>(١)</sup> ولكن رغم ذلك كله ، فقد اتصفت كثير من السير بجودة الصياغة الأدبية وسلسلة السرد القصصى ، والقدرة على إعادة الماضى ، وبعث الحياة والحركة والحرارة فى تصوير الأحداث والتجارب الشخصية ، وإن كان أقرب هذه التجارب إلى السير الذاتية الأدبية ، بمعناها الحديث التّرجم التى كتبها الرازى وأسامة بن منقذ وابن خلدون والشعرانى . فقد توافر فى ترجمتهم السمات المميزة لشخصية صاحبها ، والتطور الذى طرأ على هذه الشخصية ، والصراع الذى اعتراها ، مع مهارة فى السرد الأدبى ، الذى يعتمد على كثير من عناصر الفن ، وقدر من الترابط فى أجزاء كل ترجمة ذاتية ، مما يجعلها عملاً يقوم على وحدة البناء فى أكثر أجزاءه . كل ذلك يعمل على تحقيق المتعة الأدبية وإثارة التعاطف الوجدانى بين كاتب الترجمة والمتلقى<sup>(٢)</sup> . وفى العصر الحديث أخذت السيرة الذاتية طريقها فى التطور والنمو ، وبديهي أن تكون المحاولات الأولى محدودة القيمة الأدبية ، وليست بهذه الصورة من الجودة التى وصلت إليها السيرة مع تقدم الأيام فى القرن العشرين ، وأشهر هذه السير تلخيص الإبريز فى تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوى والخطط التوفيقية وعلم الدين لعلى مبارك . والساق على الساق لأحمد فارس الشدياق والذى يجمع بين هذه السير " أن أصحابها لم يتأثروا فى كتابتها بالأدب الغربى ، رغم معرفة بعضهم بهذا الأدب ، وربما يكون تأثيره ضئيلاً لدى البعض الآخر لكنهم جميعاً تأثروا بالتقاليد الموروثة للأدب العربى ، فنرى معظمهم ينهج فى ترجمته الذاتية نهج تراجم العلماء التى يزخر بها تراثنا العربى ، فيعنى المترجم بنفسه كالسابقين – بإثبات مراحل تطوره العلمى والفكرى منذ الطفولة ، حتى وقت كتابة ترجمته ، وقد يعن له ذكر

١ - راجع : فن السيرة د . إسمان عباس ص ٣٧ وص ١٢٠ و ص ١٢٣ .  
٢ - راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣٨ : ٣٩ .

أسرته وأصولها وما وقع له من الأحداث البارزة في حياته ، ولكنها لا تختلف في جملتها عن التراجمة الذاتية التي خلفها لنا علماء العرب منذ القديم " (١) .

أما سيرة رفاعة رافع الطهطاوى فى ( تخلص الإبريز فى تخلص باريز ) فهى تصور خلاصة تجربته فى الرحلة إلى فرنسا إماماً للبعثة التى أرسلها محمد على إلى هناك لتلقى العلم من منابعه الأصلية ، فبهر هناك بتطور الحياة وسجل هذه الملاحظات والتى أراد من خلالها تنبيه المجتمع إلى هذا التطور فى شتى مناحى الحياة ، وقد أستهلها بتعريف نسبه وبلدته وأسرته التى جار الزمان عليها ، بعد سعة من العيش ، وعمله وأعضاً فى الجيش ، وسفره مبعوثاً إلى باريس ، وإن كان يؤخذ على هذه السيرة أنه كان متعثراً فى أسلوبه ، متذبذباً بين أسلوب التقرير والشرح والتعاليق الأزهرية ، وبين محاولة ابتداء أسلوب خاص به ، خاصة حين كان يترجم بعض المصطلحات التى لم تعرفها اللغة العربية من قبل " (٢) .

إضافة إلى أنه لم يترك نفسه على سجيتها فى إثبات ملاحظاته وخواطره وتسجيل أثر هذه الحياة فى نفسه ، مما أفقد السيرة الحيوية ، وقد علت القيمة الفكرية على القيمة الأدبية ، لأن مقصدية صاحبها الدعوة إلى الأخذ بأسباب الحضارة الغربية وتنبيه الشرق للجهل الذى يعيش فى غياهبه ، كل ذلك فى صيغة تقريرية ، لا من خلال الأحداث التى تستنبط مقصدية استنباطاً .

وأطلعنا على مبارك - أيضاً على - تطور الحياة فى المجتمع الغربى فى كتابه ( علم الدين ) حيث طوف بنا على غرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وأفرغ ما ينبغى

١ - الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص ٤٧ : ٤٨  
٢ - م. نفسه ص ٦٦ .

قوله في قالب سياحة شيخ عالم مصرى وسم " بعلم الدين " مع رجل إنجليزي كلاهما نظمهما سمط الحديث ( تأتى المقارنة بين الأحوال الشرقية والأوروبية ) (١) .

فقد قام على مبارك بالتطواف فى بلاد الغرب ، منتحلاً اسم الشيخ علم الدين الذى يتصف بتفتح الذهن وسعة الأفق ، فيوافق على السفر إلى أوروبا مع ذلك السائح الانجليزي فيعلمه العربية ، ويظل يسأل ذلك السائح ، فيفاجئ بعادات أوروبية ، لم يكن على علم بها ، فتارة يقتنع ، وتارة أخرى يرفضها مؤثراً عليها عادات الشرق ، وفى الخطط التوفيقية يعرض لسيرة حياته متكاملة ( حيث كتبها عام ١٨٨٩ قبل وفاته بأربع سنوات ) تناول فيها نشأته وتربيته ، ومرآحل تعليمه قبل سفره إلى فرنسا ، حتى صار وزيراً (لديوان التعليم ) ، وإنجازته فى هذا المنصب ( إنشاء مدرسة دارالعلوم وإنشاء دار الكتب المصرية ) فهذه السيرة غنية بمعارف كثيرة ، وهى معارف تطلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية فى القرن الماضى . . . بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعليم فى عهد إسماعيل (٢) .

أما الشدياق فى ( الساق على الساق ) فقد كان أوضح من الطهطاوى وعلى مبارك ، لأنه قصر الحديث على نفسه ورحلاته إلى مالطة وإنجلترا وفرنسا ، مفصلاً عن آرائه فى الحياة ، وسخريته من رجال الدين ، ونقده لبعض العادات عند الغربيين والشرقيين على السواء ، " ولكن غرامه باللغة وانياده لطبيعة المقامة ، وإسرافه فى التورية والتلميحات الجنسية " . . . إضافة إلى غرامه بالاستطراد والمتردفات اللغوية لإظهار

١ - راجع : علم الدين ( على مبارك ) القاهرة عام ١٨٨٣ ج ١ ص ٨ .  
٢ - الترجمة الشخصية د . شوقي ضيف طدار المعارف القاهرة ص ١٠١ .

قدراته اللغوية<sup>(١)</sup> كل ذلك حال دون توافر المتعة الجمالية للسيرة ، لتكلفه وولوعه بالمحسنات البديعية دون إدارك بمقدمات هذا الفن التى ذكرناها من قبل .

ومنذ بداية القرن العشرين ازدهر هذا الفن وتعددت صور، الأدبية كاليوميات والمذكرات والذكريات والاعترفات ، والرأية التى يتخفى صاحبها فى شخصية البطل (كما مر بنا فى أديب لطفه حسين وعودة الروح للحكيم وإبراهيم الكاتب للمازنى وثلاثية لا أحد فى المدينة لأحمد إبراهيم الفقيه ) .

ونذكر من اليوميات ( يوميات مصطفى عبد الرازق ويوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ) ومن المذكرات مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق ، ومذكرات محمد فريد أبو حديد ، ومذكراتى لعبد الرحمن الرافعي ، وخليها على الله ليحيى حقى، ومذكرات الشابى ، وتعددت اتجاهات الكتاب فى الشكل الفنى فاتخذوا الشكل الرئائى تارة وأسلوب المقالة تارة أخرى ، وأسلوب المؤرخ تارة ثالثة ، فأصبح فن السيرة اليوم لا يقتصر على معالجة أفعال شخص ، وتأثيره فى زمنه ، وتأثره بزمنه ، ولكنه أصبح يبرز الشخصية كقيمة .. فكان من الضروري أن يأخذ هذا الفن من علم النفس وعلم الوراثة أشياء كثيرة ويضعها فى قالب أدبى ، ليأخذ - كما مر بنا - من الرأية والمسرحية أسسا كثيراً لتحليل الشخصية ، ووحدت البناء والاعتماد على الحوار وعمق الصراع النفسى ... ومن أشهر هذه الأعمال التى توافر فيها المقومات الفنية لهذا الفن الأدبى ، الأيام لطفه حسين . وزهرة العمر وسجن العمر لتوفيق الحكيم ، وأنا وحياة قلم للعقاد ، وتربية سلامة موسى لسلامة موسى وأوراق العمر للويس عوض ، وحصاد العمر لتوفيق يوسف عواد ، وعلى الجسر لبنت الشاطيء ، والخبز الحافى والشطار لمحمد شكرى ، والبئر الأولى وشارع الأميرات لجبرا

١ - راجع : فن السيرة د . إحسان عباس ص ١٤١ .

إبراهيم جبر' ، وبقايا صور والمستنقع والقطاف لحنا مينا ، ورحلة صعبة ( رحلة جبلية )  
والرحلة الأصعب لفدوى طوقان ، والوسية لخليل حسن خليل . الخ .

## السيرة الذاتية في الأدب الغربي :-

يبدو أن السيرة الذاتية بالمفهوم الحديث لم يكن لها وجود في الأدب الغربي قبل  
عام ١٦٠٠ م ، ثم ظهرت بعد ذلك ، وفي فترات طويلة حتى عام ١٨٠٠ م ، وإن كان هؤلاء  
الكتاب يتوخون ما يشبه لبعض السنن الأدبية في كتاباتهم ، ولكن رغم ذلك لم يستطيعوا  
صنع جنس أدبي جديد (١) .

وأقدم ما كتب في فن السيرة كان على يد شخصين يونانيين هما ثيوفراستوس  
(٣٧٢ - ٢٨٨ ق . م ) وبلوتارك ( ١٢٢ - ٤٨ ق . م ) غير أنهما أهتما بالأنماط العامة  
أكثر من اهتمامهما بالصفة الشخصية ، وكانا مهتمين بما هو شائع من الشخصيات ، ولم  
يهتما بما يميز كل فرد بعينه ، وقد ظهرت السيرة في الأدب الانجليزي بداية من عام  
١٥٧٩ م ، وكان أول هذه السير موقوفاً على حياة القديسين ، وكانت هذه السير تتناول  
الأتقياء في صورة من الوقار ، وكان غرض هذه السير إظهار معجزاتهم ، والأعمال الجميلة  
في حياة هؤلاء (٢) . ومن هذه السير ما كتبه ألفريك *Alifric* من سيرة ( أزالد ) والقديس  
( آدمون ) وكانت هذه الكتابات هي بداية الكتابة الجادة في فن السير والترجم في الأدب  
الانجليزي ، وقد ظلت إلي القرن التاسع عشر حتى أصبحت فرعاً من فروع الأدب . (٣)

1 - English autobiography , Its Emergence materiale and form . California  
university California press 1954 p.5 .

2 - See The Readers guide William Enrys Williams p.82

3 - See : Purnell : New English Encyclopedia vol 2 No .7

ومن أشهر التراجُم الذاتية في الأدب الغربي اعترُفات القديس أوغسطين التي تعتبر قمة الاعترُفات الدينية ، وقد حذا حذوها من كتب بعده ، وهي تذكر بما احتوته من صراحة وصدق ، وقدر من الاستبطان والتعري النفسى والأصالة .<sup>(١)</sup>

وقد اتخذت السير الذاتية في العصور الوسطى عند الغرب صوراً عدة كالمنكرات واليوميات والذكريات والاعترُفات . نذكر منها منكرات جميس ميلفل ( ١٦١٧ ) ومنكرات ( روبرت كارى ١٦٢٦ ) ومنكرات السير جيمس تارنر ( ١٦٧٠ ) ، ومن اليوميات يوميات بلستروود ( ١٦٧٥ ) ويوميات جون إيفلين ( ١٧٠٦ ) ويوميات صموئيل بيتس ( ١٧٠٦ ) ومن الذكريات ذكريات كارلين ( ١٨٨١ ) وذكريات وليم ميشيل رونهاتى ومن المنكرات منكرات بيتر هنرى بروس ، ومنكرات الفيكونت وولزلى ( ١٨٠٣ ) ومنكرات جلوفر التى نشرها عام ( ١٨١٤ ) ، ومن المنكرات - أيضاً - منكرات جيمس فيرجسون ومنكرات هيوم ، ومنكرات هوج ومنكرات سيرولد سكون ومنكرات داروين<sup>(٢)</sup>

ومن الاعترُفات نذكر اعترُفات جون نيوتن ، واعترُفات كوبر ، وهناك ترجمتان ذاتيتان كان لهما أكبر أهمية فى تطور هذا الفن الأولى كتبها الفيلسوف ديفيد هوم عام ١٨٨٧ م والثانية كتبها جيبون Gibbon عام ١٧٩٦ م ، وترجع قيمة الأولى أنها كانت البداية للسير الأدبية التى تدفقت كتابتها تدفقاً غزيراً بعد ذلك . أما الثانية فقد كان ظهورها إيذاناً بوثبة جديدة فى تاريخ الترجمة الذاتية ، يتحلى بالتقاليد والأساليب التى توخاها الكتاب الذين جعلوا من هذا الفن فناً قائماً بذاته .<sup>(٣)</sup>

وقد انتشرت السير الذاتية فى القرن العشرين لانتشار المبادئ الرومانسية وعنايته بالفرد وأحاسيسه ، واتصفت هذه السير بالجرأة والصراحة والتعري أكثر من غيرها

١- راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربي الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص ١٣ .

2 - See : English autobiography p.63:64

٣- راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربي الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص ١٨:١٩ .

فنجد بعض الكتاب يكشفون عن علاقات شخصية بدون تحرج مثل جان جاك روسو الذى يعترف بالسرقة وعلاقات مع نساء متزوجات . الخ .

ومن أشهر السير الذاتية فى الأدب الإنجليزى فى القرن العشرين ترجمة وإيم بتلر بيتس *yeats* ( ت ١٩٣٨ ) وجورج مور الذى كتب ثلاث ترجمات ( اعترافات شاب - مذكرات حياتى المنسية - سلاماً ووداعاً ) وقد اتخذ الأسلوب المباشر فى عرضه لسيرته كالمذكرات والذكريات - ومن السير التى لها مكانة - فى الأدب الغربى - سيرة حياة هيلين كيلر بعنوان ( قصة حياتى ) فقد ولدت خرساء صماء عمياء وفيها توصلت لعالم الحواس الذى كانت قد فقدته . (١)

ومن أشهر السير فى الأدب الفرنسى اعترافات روسو وكتاب صديقى لأناتول فرانس ، ويوميات أندريه جيد ، ويوميات جابريل مارسيل ، ومن أشهر السير فى الأدب الألماني رسائل جوته والشعر والحقيقة لجوته ، وثلاث تراجم لكارل ياسبرز هي ( حول فلسفتى عام ١٩٤١ م ) وفى طريق الفلسفة عام ١٩٥١ وسيرة ذاتية فلسفية عام ١٩٥٣ م وسيرة مجملية لاينشتاين ، ومن أشهر السير فى الأدب الروسى اعترافات تولوستوى ويوميات مارى بشكيرتسيف ، والحلم والواقع لنيقولاس برديائيف . (٢)

وقد علل دافيد سيسل لانتشار فن السيرة الذاتية فى عصرنا بقوله لقد شهد الأربعون عاماً الأخيرة تقدماً كبيراً فى الدراسة النفسية وطبيعة الشخصية الإنسانية والقوى التى تحركها ، وتأثير عناصر الوراثة والمؤثرات الخارجية ، كل هذا أصبح مفهوماً لم يكن من قبل ، وعلى ذلك فالكتاب أصبحوا قادرين عن نى قبل على إعطاء تقرير كامل عن الشخصية الإنسانية . (٣)

1 - See : Purnell . New English Encyclopaedia vol 2 No .7Git bir .

٢- راجع : الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى إبراهيم عبد الدايم ص ١٩ : ٢١ .

3 See : Anthologs of Modern Biography Edited by David Cecil p.27 .